دراسات

منهجيّة صدر المتألّهين في التّفسير القرآني

د. محسن صالح

مقدّمـــة

القرآن الكريم هو الكلام الإلهي الموحى به إلى رسوله الأكرم ﷺ، وهو الكتاب الذي يحوي بين دفّتيه كل ما ينفع الناس في دينهم ودنياهم، وهو أيضاً دستور المسلمين والمؤمنين في كل زمان ومكان. لهذا فقد عكف المسلمون الأوائل، وعبر القرون، على قراءته وترتيله والتبحُّر في معانيه، فاستخرجوا الأحكام الشرعية، وعمّقوا النظر في تفسيره وتأويله فنظّروا في الدفاع عن العقائد السماوية في التوحيد والنبوّة والمعاد وغير ذلك.

واهتمَّ العلماء الأوائل بتفسير القرآن، كلٌّ حسب توجُّهاته وميوله: الفقهية، الكلامية والسّياسية... أو المعرفية؛ وذلك لإيجاد التّسويغ الشرعي الملائم لخطابه ولسلوكاته تجاه ربِّه ونفسه وأمّته، أو اتجاه الكون والحياة والعالم. ولمّا كان القرآن الكريم أوّل مصادر التشريع الإسلامي اجتهد المفسّرون؛ والفقهاء منهم بخاصّة، في تطوير استنطاقاتهم لهذا الكلام الإلهي كلما استجدَّ لهم من العلوم والحوادث ما لم يتم التطرُّق إليه في ما سبق. وأصحاب النزعات العقلية الفلسفية، كالشيخ الرئيس ابن سينا، وفي أول محاول لمطابقة، أو مواءمة، ما هو قرآني مع ما هو حكمي إنساني، ولجوا إلى القرآن من باب بعض الآيات ليجدوا تسويغاً فلسفياً لمقولاته في العقل والنفس.

سمحت طبيعة النّص القرآني، بما فيه من آيات محكمات وآيات متشابهات،

لوجود هذا التنوُّع في التفسير. وممَّا ساعد في تطوُّر أساليب التفسير ومنهجياته وجود مدارس وتيارات فكرية وسياسية وفقهية، تماماً كصور العقول عن الحياة.

طرق التَّفسير ومنهجيَّاته قبل صدر الدِّين الشِّيرازي

منذ بزوغ فجر الإسلام وبدء الوحي والرسالة الشاملة كان على الرسول ﷺ شرح الآيات المنزَّلة وتفسيرها من النواحي المتعدِّدة: اللغوية والحكمية والعملية.

نشأ من هذه السِّيرة والتفسير والهداية ما يعرف بسنَّة النبي ﷺ: الأقوال والأفعال والتقريرات.

سار التَّابعون والصَّحابة، قريبو العهد من النبي ﷺ، ومن كان معروفاً منهم بصلته وقربه من النبي ﷺ على هدى سنَّته، وبما أن المسلمين قد آمنوا بالكتاب والسنة، بوصفهما مصدرين من مصادر المعرفة والتشريع لحياتهم هذه، ولحياة ما بعد الموت، فقد عكفوا على دراسة القرآن وتفسيره، والعودة إلى السنَّة عندما تنغلق على أفهامهم بعض الآيات، وتطرأ على حياتهم حادثة لم يسبق لهم أن واجهوها أثناء وجود الرسول ﷺ بين ظهرانيهم.

كان من الطَّبيعي أن تتعدد التفسيرات تبعاً لطريقة تناول المفسِّر، فإن كان لغوياً فإنه يفسِّر القرآن من النَّاحية اللُّغوية، وإن كان متكلِّماً فإنه يشرح العقائد الإلهية ويفسرها، وبخاصَّة من الوجهة الكلامية التي تناسب نزعته، فإن كان أشعرياً أو معتزلياً حاول أن يثبت معتقداته الأساسية من خلال الآيات التي تدعم فلسفته الكلاميَّة وتؤسِّس لها، وإن كان متصوِّفاً نزع نحو التفسير الصوفي. وهكذا وُجد العديد من التفسيرات للقرآن الكريم: التفسير بالمأثور المستند على الحديث والسنة المتواترة، وتفسير القرآن بالقرآن، والتفسير الصوفي، والتفسير اللغوي.. الخ.

وقد عُرِّف التفسير بأنَّه إيضاح لمعاني آيات القرآن الكريم وإماطة اللثام عن أغراضها ودلالاتها[1]. ولعل من أكثر التفاسير الباقية والمعتمدة والشاملة هو تفسير الطبري: «**جامع البيان عن تأويل آي القرآن**»[2]، هذا التفسير حاز إعجاب المفسرين

ممَّن فسر بالمأثور ومن فسر بالرأي. السيوطي وغيره أبدوا إعجابهم بهذا التفسير على أنه «أحسن التفاسير وأكبرها»[٣].

جمع الطَّبري العديد من الأحاديث المرويَّة عن كل آية وكافة ما قيل بصددها. وناقش كل شهادة وقول بشكل نقدي. فهو يدوِّن الآية ويضع الروايات ويناقشها، أوَّلاً في ما بينها، ثم يذكر الاعتراضات عليها، وبعد ذلك يبدي رأيه بكل تجرد وموضوعية. وأحياناً يقول: «وهم يقولون (كذا) وهذا موافق لرأينا». بالإضافة إلى ذلك فهو يفسِّر الآية من الناحية اللغوية مع شواهد دلالية لغوية من الشعر الجاهلي، مع عدم إغفاله لبعض الآراء الكلامية والفقهية[٤].

أما ابن كثير فوضع كتاباً في التفسير أسماه «**تفسير القرآن العظيم**»[٥]، واتّبع فيه طريقة التفسير بالمأثور، حيث عارض التفسير بالرأي. يشرح ابن كثير الآية من الناحية اللغوية ويستشهد بآية أخرى أكثر وضوحاً ليؤيد رأيه حول الأولى، وبعد ذلك يسند تفسيره بقولٍ مأثور من السنَّة. وكذلك يفعل السيوطي في تفسيره «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» الذي يشير إليه في إتقانه[٦] حيث يدوِّن الآية وما يتعلق بها من أحاديث من السنَّة عبر سلسلة من الرواة[٧].

التفسير بالرَّأي، وقد ابتدأ، كما يقال، مع المعتزلة، يفترض استعمال العقل في استخراج المعاني والدلالات للآيات القرآنية. ولهذا، فإن المعتزلة، وانسجاماً مع نظريتهم في الوحدة المطلقة/ التنزيه/ لله تعالى عن معاني التشبيه فسَّروا مجازياً بعض الآيات التي يبدو معناها الظاهر متضمِّناً لمظاهر تجسيدية (كالإبصار. واليد: يد الله فوق أيديهم، لا تدركه الأبصار)[٨]. وقد سمَّى العلامة الطباطبائي هذه المنهجية بأنها «تطبيق لا تفسير»، إضافة إلى قوله: إنَّهم يفسرون القرآن وينطقون آياته ولا يجعلون الآيات تتكلم بنفسها[٩]. تفسير الزمخشري: الكشاف، وتفسير الرازي: مفاتيح الغيب، مثلان لهذا النوع من التفسير[١٠].

الزمخشري (ت. ١١٤٤م) ينتمي إلى فرقة المعتزلة التي عرفت باعتمادها على الرأي في تناولها للقضايا العقدية والفقهية والكلامية، وكان لغوياً. هذان المظهران وظفهما في تفسيره، أو تحليله للآيات القرآنية. لهذا فهو لم يعر اهتماماً كبيراً

للروايات والأحاديث ودقة أسانيدها[١١]. فقد اتّهم الزمخشري بالبدعة وعدم الإخلاص للسنة[١٢].

الرازي، من جهته، جمع أكبر كمية ممكنة من الأحاديث، القواعد والمعاني اللغوية، علم الكلام، الفلسفة، والأدب الصوفي، عند تناوله للآيات الخلافية. فهو يناقش ويدافع ويؤيد ويعترض متنقلاً بين كافة هذه الحقول المعرفية. وهو، بوصفه متكلّماً، يستعمل المقدمات المنطقية والقواعد الفلسفية في الدفاع عن النبوة والوحي. ولهذا، فقد انتقد لانحرافه عن سياق الآيات المفسرة[١٣].

أمّا المنهجية الشيعية التقليدية في التفسير فلم تختلف كثيراً عن التفاسير الأخرى عند أهل السنة، سوى أن الشيعة اعتمدوا في تفسيرهم على الروايات المنقولة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام [١٤].

المفسرون الأوائل من الشيعة كانوا من الأئمة عليهم السلام، وبخاصّة الإمام الصادق عليه السلام (ت٧٦٥م). وبعضهم ينسب للإمام الصادق عليه السلام تفسيراً صوفياً[١٥].

هناك تفاسير شيعية أخرى كتفسير الكوفي[١٦]، والقمي[١٧]، تؤيد ما ذهب إليه العلامة الطباطبائي، فهذه التفاسير تدوّن الآية وتفسّرها بالمأثور عن أهل البيت عليهم السلام. وهكذا فقد تجنّب هؤلاء المفسّرون الاجتهاد واستعمال الرأي، أمّا المفسّرون المتأخّرون، كالطوسي وملاّ صدرا، فقد استعملوا الاجتهاد والرأي[١٨].

التفسير الفلسفي الذي باشره ابن سينا (ت ١٠٣٧م) بإشاراته لآية النور، لم يكن شائعاً ولا كان في نية الفلاسفة الدخول في تفسير للآيات المحكمات بخاصّة. فالفلاسفة رأوا أن هذه المهمة موكلة للفقهاء[١٩].

أمّا التفسير الصوفي فإنه يرتكز على المعنى الباطن للنص القرآني. فقد رأى أهل التّصوُّف أن هناك أربعة مستويات لمعاني الآيات: العبارة، الإشارة، اللطائف والحقائق، فالأولى تختص بعامة المسلمين، والثانية تختص بأهل التصوف، والثالثة بالأولياء والرابعة بالأنبياء.

أوّل هذه التفاسير الصوفية وأقدمها تفسير سهل التستري (ت ٨٩٦م). يركّز

التستري على مقاطع/ آيات منتقاة من القرآن الكريم، ويسترعي الانتباه للعمق والتحذير اللذين تنطوي عليهما الآية. وهذه الطريقة كأنها التأثُّر والتأثير اللذان يمارسهما الشيخ الصوفي على المريد ـ السماع والسلوك[٢٠].

التَّفسير الفلسفي/ العرفاني

١ ـ ومع تطوُّر الحياة وتشعبها وظهور التيَّارات الفلسفية والصوفية والعرفانية برز التفسير الفلسفي، بوصفه منهجيَّة من المنهجيات الوافدة، وقد حاول أصحابه إظهار التوفيق ما بين النص الديني ـ من مصدره الأول ـ والتأويل الإنساني لأنماط التعقل الإنساني، وبخاصَّة ما سمِّي بالحكمة، أو التوفيق ما بين الفلسفة والدين.

ومنهجيَّة التفسير الفلسفي تختلف كثيراً عن المنهجيات الأخرى في التفسير. ابتدأ هذا الإتجاه مع ابن سينا (ت ١٠٣٧م)، كإشارات للتفسير العرفاني، وتطوَّر مع الشيخ ابن عربي (ت ١٢٤٠م). آراء هذين المفسِّرين التي أبدياها والمفاهيم التي وصلا إليها، وبخاصَّة في الوجود «والإنسان الكامل»، والحقيقة المحمدية، كان لها الأثر البالغ على تفسير أخوند صدرا العرفاني. والعرفان، كما هو واضح من نصوص الملاَّ صدرا، يعني افتراض أن هناك معنىً باطناً للقرآن الكريم. وهذا يفترض أيضاً الغوص في معاني النص ومفاهيمه الأولية، وهو ما يعني، في ما يعنيه، التأويل.

والتأويل، أو العودة بالنص إلى مفاهيمه ومعانيه الأولى، أو الأصول التي انطلق منها من حيث الدلالة والأبعاد والغايات، لا بد من أن ينشغل به أصحاب العقول والإدراكات الذين وصلت عقولهم إلى مستوى الصَّفوة/ العقل المستفاد. هذه المرحلة، يرى الشيخ الغزالي (ت ١١١١م) أنَّها محصورة في طبقة خواص الخواص، وفيها يصبح العقل قادراً على المعرفة الشهودية المباشرة من «المبدأ الفعال» ومن دون وساطة[٢١]، وهذا برأي صدر الدين الشيرازي لا يتناقض مع النص الصريح. وهو يقول: «فاعلم أن مقتضى الدين والديانة أن لا يؤوِّل المسلم شيئاً من الأعيان التي نطق بها القرآن والحديث إلا بصورها وهيئاتها التي جاءت.. اللهم إلا أن يكون ممَّن خصَّصه الله بكشف الحقائق والمعاني والأسرار، وإشارات التنزيل وتحقيق التأويل...»[٢٢].

وتمشّياً مع اعتقاده هذا، فقد ألّف صدر المتألّهين العديد من الكتب التي تفترض هذا المعنى العميقِ والباطن لآيات القرآن الكريم. من هذه الكتب، إضافة إلى تفسيره الذي حقّقه محمد خواجوي مؤخراً في قم، أسرار الآيات، ومفاتيح الغيب وشرح أصول الكافي.

ملاّ صدر الدّين الشّيرازي، مجدّد الفلسفة الإسلامية، كان الأوّل من بين الكثيرين من أقرانه من الفلاسفة المسلمين، الذين كرّسوا عدداً من كتبهم للتفسير الذي حاول التّوفيق ما بين الحكمة والشريعة. هذه المنهجية الجديدة، في تناول النّصّين: الفلسفي والدّيني المقدس، أنتجت نمطاً جديداً من الحكمة، وقد أتيح له أن يحقق نجاحاً، في هذا المجال، لم يتوفر لغيره من الفلاسفة. فعلى يديه نضجت الفلسفة المتعالية، وبخاصّة عبر نظريتيه: أسبقية الوجود على الماهية، والحركة الجوهرية، وأخذ التفسير عنده شكلاً ومنهجاً جديدين لم يعرفهما من قبل، فكان بذلك سبّاقاً في الحقلين. هذا إضافة إلى مزجه، إلى أبعد الحدود، بين المفاهيم الحكمية والنصوص القرآنية، بحيث لم تعد تميّز بين ما هو تفسير للدين الإلهي الأصيل وبين ما هو فلسفي شامل في الكون والحياة والإنسان.

فالإنسان الكامل والعارف والمتألّه هو الفيلسوف الحكيم المتعالي والموجود والجوهر. فلا النّص أصبح بمعزل عن النفس العاقلة ولا النفس العاقلة أصبحت خالية من النص المفطور الإنساني الأول. فالخلق والخليقة، والعقل والمعقول، والصورة والموجود، ثنائيّات تعانقت وحضرت في الذهن والواقع، فأصبحت كيفاً بلا آلات حسية، فضاع الحسي المتغير والمتبدّل والفاسد، وبقي المعقول الجوهري والنفسي الأبدي.

منهجيّة صدر المتألّهين في التّفسير

منذ البداية لا يمكننا فصل تفسير صدر المتألّهين عن التفسير الشيعي، من حيث ركونه إلى سنّة أهل البيت عليهم السلام. فهو، إضافة إلى القرآن والسنّة النّبويّة الشريفة المنقولة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، يستند إلى تفاسير العارفين وآراء الفلاسفة في النفس والوجود، ويناقشها، ويهفت ما ثبت ضعفه، ويثبت ما حسن

شأنه. ولقد كان شيخ الإشراق السهروردي حاضراً في آرائه، وبخاصَّة في تفسيره لآية النور، على الرغم من مخالفته له في بعض جوانب فلسفته بما يتعلق بأسبقية الوجود.

كما أشرنا، فإن تفسير ملاَّ صدرا الفلسفي ينتمي إلى التفسير الشيعي الذي يفترض معنى باطنيّاً للنص القرآني، وهو لذلك يستند إلى سنَّة أهل البيت عليهم السلام، بالإضافة إلى المقولات الفلسفية والعرفانية. فالجانب العرفاني هو الصيغة الغالبة على تفسيره بشكل عام، وعلى باقي كتبه التي تتناول عمق هذه الموضوعات التأويلية[٢٣]. ولهذا أيضاً دلالة كبرى على عدم تناول ملاَّ صدرا للآيات المحكمات، تاركاً ذلك لأصحاب التفسير «القشري»، كما يسمِّيه، الذين يهتمُّون بشرح ظاهر النصوص، بينما أهل العرفان يهتمون بالجانب الباطني للنص. ملاَّ صدرا لا يترك القارىء في حيرة من أمره، فهو يوضح هذا الأمر في بداية تفسيره:

«اعلموا، أيُّها المعتنون بفهم معاني الكتاب، هداكم الله طريق الصواب، إن هاهنا أبحاثاً لفظية، بعضها متعلِّق بنقوش الحروف وهيئاتها الكتبية وصور الألفاظ وصفاتها السمعية... وبعضها متعلِّق بمعرفة أوائل مفهومات اللغات المفردة والمركبة... وهذه كلها دون المقصد الأقصى والمنزل الأسنى... فاعلموا أن الكلام مشتمل على عبارة وإشارة كما أن الإنسان متألِّف الوجود من غيب وشهادة، فالعبارة لأهل الرعاية والإشارة لأهل العناية، فالعبارة كالميت المستتر في طي الأكفان، والإشارة كاللطيفة الذاكرة العارفة التي هي حقيقة الإنسان، والعبارة من عالم الشهادة والإشارة من عالم الغيب. والشهادة ظل الغيب كما أن تشخص الإنسان ظل حقيقته»[٢٤].

ملاَّ صدرا لا يشغل نفسه بالعبارة إنما بالإشارة، ويبتعد عن الحروف ويذهب إلى أعماق المعاني. في ما يتعلَّق بالاسم، عند تفسيره للسورة الأولى (الفاتحة)، يقول: «اسم الاسم موضوع في اللغة للفظ دال على معنى مستقل، لأنه مشتق من السمة وهو العلامة، فكأنه كان منقولاً لغوياً، نقل من مطلق العلامة للشيء إلى علامة خاصة، وهو اللفظ الدال عليه بالاستقلال. ولما كان نظر العرفاء إلى أصل كل شيء

وملاك أمره من غير احتجابهم بالخصوصيات ومواد الأوضاع كان الاسم عندهم أعم وأشمل من أن يكون لفظاً مسموعاً أو صورة معلومة أو عيناً موجوداً»[٢٥].

وبما أن القرآن الكريم يحتوي كافة علوم الأوائل والتابعين، فإن الله تعالى جمع في هذا الكتاب حال الأنبياء عليهم السلام وأحوال الأولياء والسالكين. لهذا فإن السر في نزول القرآن هو هداية العباد السالكين بالسمو نحو الكمال والعرفان، وأفضل الطرق هو معرفة التأويل، لأن فيها كمال معرفة كلمة الله العليا[٢٦]. هذا بسبب العلاقة الخاصة بين الأولياء والبيان القرآني، ولا يصدق هذا على الذين يعتقدون بالكلام الظاهر، فهؤلاء يهتمون بالقشور، بينما نور الله يضيء صدور أوليائه المخلصين وعقولهم. «والقرآن نور من أنوار الله والحبل المتين»، وبه هداية السالكين لمن أراد الارتقاء من هذا «العالم الدنيوي» إلى «عالم اليقين». وأصدق مثال على تفسير ملا صدرا العرفاني هو تفسيره للآيات (٢: ٣٥ ـ ٣٨)؛ حيث يتناول هبوط آدم وتعليمه الأسماء.

يؤوِّل ملاَّ صدرا هذه الآيات بالحديث عن الخلق وغاية إيجاد النفس ووظيفتها في هذا العالم والطريق الذي يلي في عملية الصُّعود، فيذكر أربعة مقامات تمرُّ النفس بها، وهي مرسومة لحركتها في هذه الدنيا لنيل الفيض الإلهي.

الأوَّل: مقام أخذ الميثاق من آدم وذريته وتعليمهم الأسماء.

الثَّاني: مقام سجود الملائكة، المسجودية، في جنة الأرواح عالم القدسية، حيث يوحِّد كافة صور أسماء الله تعالى.

الثَّالث: مقام التعلُّق، تعلُّق الرُّوح بالبدن في عالم السماء الذي يأتي بعد عالم الأسماء.

الرَّابع: مقام الهبوط، هبوط النَّفس إلى العالم الأرضي وتعلُّق النفس بالبدن المركَّب والثقيل. هذا العالم رُكِّب من أضداد تولّد العداوة والفسَاد.

مهمَّة النفس، في هذه الحال، تحرير ذاتها من هذه العلائق لتعود إلى طبيعتها الأولى[٢٧]. ذلك ما تتوق إليه النفس، وهذا ما أُمرت به قبل هبوطها: معرفة الأسماء

قبل أن تهبط إلى هذا العالم. وفي هذا العالم عليها التقاط تجلّيات حقائق هذه الأسماء ومعرفة كلام الله تعالى. تظهر تجلياتها ـ للأسماء في عالم الموجودات بوقوع الأمر والنور الإلهيَّين. ومن خلال القرآن، الذي هو التجلّي الواضح، يمكن معرفة الأسماء وإشاراتها.

وهذا يتم بالذَّهاب إلى أبعد ممَّا يُظهرهُ هذا العالم المحسوس للحواس الفانية، وإشاراته التي تظهر ما وراء الحروف والكلمات، وليس من خلال العقول ولا الحواس، إنما من خلال الوجدان والحدس تصل النفس إلى كمالها وقدسيتها. عندها فقط يستحق هذا الخليفة ـ الإنسان ـ الثقة التي أكرمه الله بها.

ومنهجيَّة ملاَّ صدرا التعليمية هذه لا ترتكز على الحياة اليومية العملية، بل تتعامل، وبمقدار كبير، مع العالم المخلوق وحقيقة المعاد. بناءً عليه، فإنه ينغمس في تبيان الحقيقة الباطنة التي تتجاوز حقيقة معتقدات الإنسان العادي. ذلك أن العامة ترى خيالات الموجودات الحقيقية وظلالها. لهذا فإن الأنفس يجب أن لا تتعلَّق بما تعقله من طريق الحواس. المشاهدة الوجدانية التي تأتي عبر النور الإلهي، والتي تضيء قلب الإنسان المؤمن، بها يجب أن تتعلق أرواحنا حيث تعود لأصلها وتجد ملاذها النهائي[٢٨].

٢ ـ ولعلَّ أصدق مثال على منهجية ملاَّ صدرا في التفسير والتأويل هو تناوله لآية النور؛ حيث يضع كافة عناصر فلسفته ومعارفه اللغوية الشفافة، الفلسفية، الكلامية، ومعرفته في العلوم الطبيعة، الجغرافيا والأقاليم، والتصوف وما بعد الطبيعة، بأسلوب متميِّز عارضاً فلسفته ومقولاتها الرئيسية في الوجود وتشكيكه ووحدته، والوجود الرباني النوراني. وتظهر الأرسطية، وبخاصَّة في ما يتعلق بعلم النفس، والعرفانية المتأثرة بابن عربي، يدل هذا على غزارة علم ملاَّ صدرا ومعرفته بعلوم القدماء ومعاصريه أيضاً، علوم الدين والمعارف العقلية.

يقسِّم ملا صدرا تفسيره لآية النُّور إلى مقدِّمة وستَّة فصول وخاتمة. في المقدِّمة يتحدَّث عن التعريفات المتعدِّدة للنور: آراء العامة، آراء المحجوبين، ورأي أهل الإشراق وكبار الصوفية.

ملاّ صدرا يصرف النظر عن رأي أصحاب التفسير الظاهري اللغوي، الذي يعتقد أن النور عرض حادث: كنور الشمس وغيره، وغيره من الآراء التي تتعامل مع الكلمة من ناحية المحسوسات والأجسام؛ وهو يعطي مثالاً على ذلك تفسير الزمخشري الذي يقول: إن «الله مثل نور». بالنّسبة لملاّ صدرا ليس هناك من مكان لكلمة أن «الله مثل نور». هو النور، النور الحقيقي. ونور الأنوار، كما يقول أهل الإشراق[٢٩]. وهذا التعريف الإشراقي ابتدأ مع الغزالي في تناوله للآية نفسها في كتابه مشكاة الأنوار. ذلك أن الله تعالى هو النور بذاته والذي يجعل الأشياء ترى. ملا صدرا، كأهل الإشراق، يقسم النُّور إلى أربع كيفيات: النور الغني بذاته، المجرد والمحض. وهذا النور هو المسبب لباقي الأنوار العرضية التي تصب على الأجسام.

كبار أهل التَّصوُّف مع أنهم يوافقونه على أن النور حقيقة بسيطة، إلا أنهم يرون ذلك جوهراً، وحجتهم هذه مستندة إلى حديث منقول عن الصحابي ابن مسعود يساوي نور السماوات والأرض بالنّور الذي يضيء في قلب المؤمن. ملا صدرا لا يوافق على هذا التفسير، وجميع الاستعارات والاستعمالات لا تقنعه سوى أن الله هو «النور». فحقيقة الوجود وحقيقة النور واحدة. والحقيقة تعتمد على هذا النور وتشككها (مراتبها ودرجاتها). الموجودات التي نراها متغيرة وليست حقيقة. والمعنى الباطني أن هذه الأجسام هي ظلال وتشخصات لصور محددة. وهنا يتفق مع رأي أفلاطون بالنسبة لنظرية «المثل»، والتي تقول بالوجود الأولي للصور الثابتة وغير الفاسدة[٣٠].

في الفصل الأول يشرح ملا صدرا نسبة الضوء للسماوات والأرض. وجود أي شيء هو بنسبة تجلّيه من ناحية الماهية والذات. الله تعالى أنشأ الأنوار بذاته المنورة. هذا معنى الإنشاء البسيط. هناك مقابلة بين ذات أي موجود وذات الصانع. في هذا الفصل يعرض ملاّ صدرا لنظريته في أسبقية الوجود على الماهية. حيث يرى أن الماهية إنشاء عقلي وليس لها وجود حقيقي سوى في الذهن.

في الفصل الثاني يتابع ملاّ صدرا تأويله بالتركيز على الرموز الآتية: «المشكاة»، «المصباح» و «الزجاجة». يقارب هذه الرموز بالتأكيد على أهمية

«الشهود»، «والحقيقة المحمدية» و «الأسماء الإلهية». فالنور هو الوجود الذي أضاء وأحاط «بالإنسان الكامل»، محمد. والشهود لا يكون إلا عبر الحقيقة المحمدية والضوء المحمدي، وفي هذا التأويل مصداق لما ذهب إليه المفسِّرون الشيعة من أن المقصود بالمصباح والزجاجة والكوكب الدري، حقيقة آل محمد ﷺ وسنَّتهم، ثاني الثقلين. التوحيد المطلق لا يمكن الإحاطة به وفهمه لا من خلال الكلمات (التعبير) ولا من خلال التجربة. يُعرف الله فقط من خلال أسمائه وتجلِّياتها. لكل اسم/ من أسمائه تعالى/ مظهران: الأوَّل وجود محض والثاني انعكاس وجودي للأول. فإذا كان المصباح هو النور الحقيقي المحض ـ اسم الجلالة، فالحامل لهذا النور الاسم المحيط والكامل والذي يتمثل بالنبي ﷺ.

في هذه الحال، يصبح النُّور مساوياً للوجود وحامله مساوياً للماهيَّة. بناء عليه، يصبح المصباح الرمز المشترك لـ «الله» و «النبي». والفرق بين الاثنين في العلاقة كالفرق بين السيِّد والعبد في العلاقة. والنبي يتلقَّى النور الربَّاني كالمرآة التي تعكس ضوءها على الأمَّة. وهذه حقيقة الشفاعة المحمدية. مع هذا، فإن ملاَّ صدرا يحذر العرفاء من الخلط بين الوجود العرضي والله.

وفي هذا السِّياق بالذَّات، يحضر ملاَّ صدرا جميع المفردات والأسماء! الرحمن، عالم الملكوت، القلم، الملاك جبرائيل، عالم البرزخ، الأعراف، الجنة والنار، العقل المستفاد، والعقل بالفعل، الأجسام المفارقة والفاسدة، والعرش، الملك، المعاد.. الخ.

وعند تفسيره لـ «شجرة مباركة زيتونة»، يستبعد ملاَّ صدرا أن تكون هذه الشجرة من هذا العالم، لا من الشَّرق ولا الغرب؛ فلهذه الشجرة أبعاد فيزيقية وما بعد فيزيقية، وهي مجموع عالم الأجسام. وهنا يتعمَّق ملا صدرا في تأويله حتى النهاية، فيستعمل كل ما لديه من علم طبيعي، وبخاصَّة علم التشريح، فيتحدث عن القلب وموقعه من جسم الإنسان وتركيبه وأهميته. ومن ثم ينتقل إلى النفس الإنسانية والنفس الحيوانية والعقول.

بعد هذا، يضع ملا صدرا آراء ابن سينا في «إشاراته»، حول الموضوع نفسه،

فيوردها كما هي: «وأما التأويل الآخر فهو الذي أفاده الشيخ أبو علي بن سينا وأوضحه شارح إشاراته (يقصد العلامة الطوسي) وموضح تنبيهاته (قدس سرهما) منزلاً على مراتب النفس الناطقة في ارتقائها إلى عالم الربوبية... فكانت المشكاة العقل الهيولاني لكونها مظلمة بالذات... و «الشجرة الزيتونة» هي القوّة الفكرية ولا فكر لأنها قابلة للنور بذاتها، وكونها لا شرقية ولا غربية لكون الفكر يجري في المعاني الكلية والمفهومات الذهنية، والقضايا المعقولة ليست من غرب الموجودات الحسية الهيولانية، ولا من شرق العقول الفعالة القائمة بأنفسها[٣١].

و «الزيت» هو الحدس، و «نور على نور» هو العقل المستفاد، فإن الصُّور المعقولة «نور» والنفس القابلة لها «نور آخر». و «المصباح» «العقل بالفعل» لأنه منير بذاته، و «النار» هي «العقل الفعال لأن المصباح يشتعل منها».

وفي «كشف إشراقي» يؤوِّل ملاَّ صدرا كافة الرموز الواردة في الآية بالقول: «ويمكن حمل «الشرق» و «الغرب» على الوجوب والإمكان، فإن ذات الباري سبحانه مطلع أنوار الوجودات وعالم الإمكان مغيب تلك الأنوار، وفيه أفول كواكب الحقائق الإسمائية، فحينئذٍ ينبغي أن يراد بـ «المشكاة» الطبيعة الكلية السارية المختلفة في الأجسام، و «الزجاجة» النفس الكلية المشفة في ذاتها القابلة للنور العقلي أتم قبول، و «الشجرة الزيتونة» هي القدرة الإلهية المتشعبة إلى فنون إيجادات الحقائق المختلفة حسب اقتضاء الأسماء الحسنى، وصور علم الله المتقدمة على مظاهرها المختلفة وموجوداتها المفصلة..»[٣٢].

وفي هذا التأويل/ الفلسفي الرائع نجد مصداقاً للفيلسوف الإلهي صاحب الحكمة المتعالية. فلم تغب عن ذهن ملا صدرا كافة المعارف المتنوعة إلا وصبّها في تفسيره هذا موصلاً العرفان والفلسفة، الحكمة والشريعة، التصور والتصديق، الفيض والإشراق، والعقول الأرسطية المشائية. وبهذا يصح أن يسمَّى صدر المتألهين مؤرخ الفكر الفلسفي والحكمي العام. ذلك أنه تميَّز بقدرته الفائقة على التعليم وعلى إنتاج نظام فلسفي شامل تجاوز فيه أقرانه من الفلاسفة والعرفاء ممَّن تقدم ومن تأخر. فالبحث في طبيعة الأشياء وأصولها لم يجعله دنيوياً ولا البحث في التأويل

والتفسير جعله حروفياً. فهو قد فاق كانط في نقده للعقل الخالص، كما أنه تجاوز النظريات الحديثة في الهرمنيوطيقا التي أخذت شكلها العميق مع غادامر في «الحقيقة والطريقة»[٣٣].

الهوامش:

(١) العلامة الطباطبائي، الميزان، الجزء الأول، ص ٢.

(٢) الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تحقيق محمود وأحمد محمد شاكر، القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٤.

(٣) السيوطي، الإتقان، ج٢، ص ١٩٠.

(٤)

(٥) ابن كثير **تفسير القرآن العظيم**، بيروت: دار الفكر، ١٩٦٦.

(٦) الإتقان، ج٢، ص ١٨٣.

(٧) م.ن.، ص ١٩٠.

(٨) انظر: الآيات ٢٢٠ ـ ٢٣، من سورة ٧٥/ القيامة.

(٩) الميزان، ج١، ص ٤، والقرآن في الإسلام، ص ٤٩ ـ ٥٠.

(١٠) الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، القاهرة: مصطفى البابي الحلبي، ١٩٦٦.

(١١) الرازي، فخر الدين بن عمر، **التفسير الكبير**، القاهرة: المطبعة البهية، ب. ت.

(١٢) الإتقان، ج٢، ص ٧٨.

(١٣) م.ن، ج٢، ص ١٩٠.

(١٤) الطباطبائي، القرآن في الإسلام، ص ٥٠.

(١٥) نويا، بول. **تفسير جعفر الصادق** عليه السلام. بيروت: Melanges De L'universite Saint Joseph (43), 1963.

(١٦) الكوفي، فرات بن إبراهيم. **تفسير فرات الكوفي**، النجف: المطبعة الحيدرية، ب.ت.

(١٧) القمي، أبو الحسن علي بن إبراهيم. **تفسير القمي**، النجف: مطبعة النجف، ١٩٦٧.

(١٨) الطباطبائي، في الإسلام، ص ٥١.

(١٩) إن منهجية الشيخ الرئيس ابن سينا في التفسير كانت محطة للكثير من النقاشات الفلسفية. انظر لهذا الغرض: وجهة النظر المدافعة عن ابن سينا وطريقته في التفسير، مقالة محمد عبد الحق، «تفسير ابن سينا، للقرآن»، Islamic Quarterly، حيث يدافع عن إخلاص ابن سينا Vol. 32 (No.1) 1988, PP. 46 - 56 للنص القرآني. وانظر أيضاً: حسن عاصي، **التفسير القرآني واللغة الفلسفية**، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٨٨، حيث يشير إلى تفسير ابن سينا

لآية النور وتشبيهة قوى النفس العاملة برموز الآية (شجرة الزيتون، المشكاة. .). ملا صدرا يورد هذا النص بكامله في تفسيره لآية النور.

(٢٠) Bowering, Gerard. The Mystical Vision of Existence in Classical Islam: The Qur'anic Hermeneutics of the Sufi Sahl AL-Tustari, (Berlin N.Y.: Walter De Gruyter, 1980), P.135.

(٢١) انظر: أبو حامد الغزالي، **مشكاة الأنوار** ٢ التي يستند إليها صدر المتألهين في بعض جوانب تفسيره لآية النور.

(٢٢) تفسير آية الكرسي، ص ١٦٦.

(٢٣) **أسرار الآيات**، تحقيق محمد خواجوي، (قم: إنتشارات بيدار، ٤٠٢هـ.ق) **مفاتيح الغيب**، طبعة حجرية.

(٢٤) تفسير القرآن الكريم، ج١، ص ٢٨، ٣١.

(٢٥) **التفسير**، ج١، ص ٣٢ ـ ٣٣.

(٢٦) انظر: **أسرار الآيات**، ص ٢١ وما بعدها، حيث يعرض ملا صدرا رؤية أهل العرفان لأسرار آي القرآن.

(٢٧) **التفسير**، ج٣، ص ٨١ وما بعدها.

(٢٨) كما يتضح من تفسيره لبعض الآيات التي تتعلق بوجود النفس وهبوطها، فإن الملا صدرا يشخص كافة الشواهد والأدلة: السنة النبوية، انباذو قليس، أفلاطون، وأرسطو، والأفلاطونية المحدثة، ابن سينا، والسهروردي، ابن عربي، والقونوي وذي النون المصري، راجع تفسيره للآيات التي سبق ذكرها.

(٢٩) في ما يتعلق بهذه المدرسة وفلاسفتها انظر:

S.H. Nasr, **Three Muslim, Sages,** (Cambridge (Mass): Harvard University Press, 1964) PP. 52 ff.

(٣٠) انظر: أفلاطون، طيماوس ٥٢ أ.

Plato, Timaeus, 5 2a. (New York: Penguin Books, (rep. 1971), P.11.

(٣١) **التفسير**، ج٤، ص ٣٨٠. شرح الإشارات والتنبيهات، الإشارة السادسة من النمط الثالث.

(٣٢) **التفسير**، ج٤، ص ٣٨١.

(٣٣) Gadmer, Hans-Georg. **truth and Method** trans. joel weins heimer and Donald G. Ma shall, (Continuum-New York: The continuum publishing company, 1944).

* * *